(سلامة الصدر)

الحمد لله الذي أمرنا بتزكية النفوس وتطهير القلوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، كان أسلم الناس صدراً وأطهرهم قلباً، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

حديثنا اليوم عن عبادة قلبية عظيمة، قلّ من يتنبه لها، مع أنها سبب لدخول الجنة ورفعة الدرجات، إنها سلامة الصدر، والمراد بها: خلو القلب من الغل والحقد والحسد والضغينة على الناس، مع حب الخير لهم والعفو عن زلاتهم.

لقد بين الله ﷻ أن سلامةَ الصدرِ من أعظمِ خصالِ الإيمانِ، وأرقى منازلِ المتقينَ، ولذا فقد وصف الله ﷻ أهلَ الجنةِ بهذه الصفةِ الحميدةِ وبين أن كمال نعيمهم لا يكون إلا بسلامة قلوبهم، فقال ﷻ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [سورة الحجر:47]. فكأنَّ الله يخبرنا أنَّ الجنةَ دارُ الطيبين، ولا يدخلها إلا من تَطهَّر من أدران الحقدِ في الدنيا، أو نُزع عنه ذلك الحقدُ عند دخولِها.

وبين لنا النبي ﷺ أنَّ سليمَ الصدر من أفضلِ وخيرِ الناس، فعندما سُئل ﷺ أي الناسِ أفضل؟ لم يقل أكثرهم صلاةً ولا صياماً فحسب، بل قال ﷺ: (كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ)، فلما استشكلَ الصحابةُ المعنى سألوا رسولَ اللهِ ﷺ، صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ فقال ﷺ: (هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ) (رواه ابن ماجة والبيهقي). فتأملوا هذا الوصف النبوي البديع: (مخموم القلب)؛ أي العبدُ الذي طَهَّرَ ونَظَّفَ قلبَه من أدران الدنيا، من البغي هو الظلم، ومن الغلّ هو الحقد الدفين، ومن الحسد هو تمني زوال النعمة.

إن سلامة الصدر عبادةٌ خفية، يتقلب صاحبُها في الأجور وهو نائمٌ على فراشه، لأنه يحب للناس ما يحب لنفسه، تطبيقاً لقوله ﷺ كما في حديث أنس رضى الله عنه: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ

حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (رواه البخاري ومسلم)، فمن أحب لأخيه الخير، استحال أن يُضمر له شراً أو يَحمل له ضغينةً، ولذا فإن لهذه العبادة الجليلة فوائد عظيمة يقطفها العبد في دنياه قبل أخراه:

أولها: نيلُ مغفرةِ الله وقبولُ العملِ: فلقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (تُعرَضُ الأعمالُ في كُلِّ يَومِ خَميسٍ واثنَينِ، فيَغفِرُ اللهُ عزَّ وجلَّ في ذلك اليَومِ لكُلِّ عبدٍ لا يُشرِكُ باللهِ شيئًا، إلَّا رجلاً كانَت بينَه وبينَ أخيه شَحناءُ، فيُقالُ: أَنظِرُوا هَذَينِ حتَّى يَصطَلِحا، أنظِرُوا هَذَينِ حتَّى يَصطَلِحا) (رواه مسلم)، فما أعظمَ الخَسَارةَ حين تُرد الأعمالُ وتُحجب المغفرةُ بسبب حقدٍ أو غلٍ أو ضغينةٍ في الصدر.

ثانيها: راحةُ البالِ وطمأنينةُ النفسِ: فالمسلم الذي يُطهّرُ باطنه يعيش في جنةٍ معجلةٍ، لا ينهشه القلقُ، ولا يحرقه الحسدُ، ولا يشغلُ وقتَه بكيدِ الخصوم، إنه ينامُ قريرَ العين، مطمئنُ البال، منشرحُ الصدر، لديه صفاءٌ داخلي، وسلامٌ نفسي، فهنيئا لأهل هذه الصفةِ الحياةَ الطيبةَ في الدنيا والأخرةِ.

ثالثها: الفوزُ والنجاةُ من عذاب الله يوم القيامة: قال ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء:88 ـ89]. فمن أصلح قلبه، وطهر صدره، وفوض أمره إلى الله، نجاه الله من أهوال يوم القيامة.

رابعها: دخولُ الجنةِ بسلام: فعن أنس بن مالك رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهلِ الجنةِ، فطلعَ رجلٌ من الأنصارِ، فلما قامَ رسولُ اللهِ ﷺ تبعَ الرجلَ عبدُ اللهِ بنُ عمرو رضى الله عنهما وأقام عنده ثلاثَ ليالٍ لينظرَ عملَه، فلم يرَه يزيدُ على الفرائضِ، غير أنه إذا تقلبَ من الليلِ على فراشه ذكرَ اللهَ وكبرَ، ولا يقول إلا خيرا، فلما سأله عن عمَلِهِ الذي بلغ به هذه المنزلة قال: ما هو إلا ما رأيت، غيرَ أَنِّي لا أجدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشاً، ولا أحسدُ أحداً على خيرٍ أعطاهُ اللهُ إياه، فقال عبد الله: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ) (رواه أحمد والنسائي).

لقد حذرنا ديننَا من الأمورِ التي تُفسد سلامةَ الصدرِ، وتُكدر صفوَ الحياةِ، وبين لنا ربُنا أنَّ من أخطرِ هذه الأمورِ: سوءُ الظنِ وتتبعُ العثراتِ فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [سورة الحجرات:12]. ولقد وضع لنا النبيُ ﷺ دستوراً صارماً لحماية القلوب حين قال في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضى الله عنه: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) (رواه مسلم).

إنَّ الذي يعيشُ بحقدٍ في صدره إنّما يعذبُ نفسَه قبل غيره، فالحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ، وإنّ علاجَ هذا الداءِ يكونُ باللجوءِ والضراعةِ إلى اللهِ بصادقِ الدعاءِ، كما كان يفعلُ الصالحون فيقولُ ﷻ على لسانِهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قلوبنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. [سورة الحشر:10]، ولقد كان رسولُ الله ﷺ يسألُ ربَهُ ﷻ أن يرزقَه سلامةَ القلبِ، فيقولُ ﷺ كما في حديث شدّاد بن أوس رضى الله عنهما: (اللهم إنّي أسألُكَ قلباً سليماً) (رواه الطبراني)، فإذا كان سيدُ الخلقِ ﷺ يسألُ ربَهُ القلبَ السليمَ، فنحن أحوجُ إلى هذا الدعاءِ.

فيا من ترجو رحمة الله، طهّر قلبك قبل أن تغسل ثوبك، وسامح من أساء إليك طلباً لما عند الله، فإن الله يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [سورة النور:22]، فالمغفرة من الله تُنال بالعفو عن خلقه.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه فضيلة الشيخ / محمد محمود محمود العدل مبعوث وزارة الأوقاف المصرية إلى البرازيل.